

المنحى التداولي للفكر السوسوري في الدرس المغاربي

ذهبية حمو الحاج¹

تاريخ النشر 2016/07/01	تاريخ القبول 2016/06/01	تاريخ الإرسال 2016/05/01
------------------------	-------------------------	--------------------------

الملخص:

شهد المغرب العربي مثل كل البلدان العربية قدوم عدّة مناهج لسانية وأدبية من الغرب، وبين مؤيد ومعارض تميل كفة الباحثين إلى ضرورة الانفتاح على الجديد ومواكبة التطوّرات والمستجدات في الدّراسة اللّسانية، وبدأت فعليا مع ظهور سوسور وأفكار سوسور، التي اشتغل بها الباحثون لما يقارب من مائة عام إيماننا بالمنهج البنيوي القائم على الوصف والدّراسة المحايثة للغة، الأمر الذي جعل الباحثين في هذا المجال يعتقدون أيّما اعتقاد بمشروعية الفكر السوسوري وحتمية استفادة اللغة العربية من معالمه ومقوماته، ومجمل الأفكار السّائدة التي اشتغل بها الباحثون تقول سوسور ما لم يقل، الأمر الذي أثر سلبا على انتشار بعض المفاهيم والمصطلحات، ومن بينها التّداولية.

الكلمات المفتاحية: البنيوية، الكلام، الخطاب، التّداولية، اللّسانيات

Abstract : The Arab Maghreb, like all the Arab countries, witnessed the arrival of several linguistic and literary approaches from the West, and between supporters and opponents, the scholars tended to open up to the new and keep abreast of the developments and developments in the linguistic study and began with the emergence of Saussure and the ideas of Saussure, In the belief in the structural approach based on descriptive and empirical study of the language, which made the researchers in this area believe any belief in the legitimacy of Saussure thought and the inevitability of the use of the Arabic language of its features and components, and the overall ideas employed by researchers say And what he did not say, which negatively affected the spread of some concepts and terminology, including pragmatics.

Keywords: structural approach, linguistic, discourse, pragmatics, speech.

مقدّمة: حدثت عدّة تطوّرات علمية في النّصف الثّاني من القرن العشرين، ومست الدّراسات اللّسانية، التي لم تعد تعترف بالدّراسة المعيارية والوصفية، الأمر الذي أثر على العلوم المجاورة كالأنثروبولوجيا، وعلم النّفس، وعلم الاجتماع ... لقد عاد أغلب الباحثين اللّغويين وغير اللّغويين إلى كتاب سوسور "دروس في اللّسانيات العامّة"

¹ - جامعة يحيى فارس بالمدينة haioula@yahoo.fr

وإلى جهود طلابه في جمع مادة الكتاب، إلا أنهم لم يطلعوا على كل المدونات، وتوقفوا عند الأفكار التي اعتقدوا في أهميتها، وهي مفاهيم اللسانيات، وذلك على حساب مفاهيم أخرى كان سوسور يشدد عليها، وهي مفاهيم يؤسس فيها لعلم السيميائية، فهناك من الباحثين الغربيين ومن بينهم لوبيكير، الذي يذهب إلى أن الكتاب قد يكون خائناً لفكر سوسور الحقيقي، إذ قد تكون بعض الأفكار متعارضة أحياناً مع الأفكار الواردة في المخطوط، أو أنها تختلف عن المعاني التي يستقصدها سوسور في محاضراته، ومن بين هذه القضايا نجد التفرقة الشهيرة بين اللغة والكلام، إذ لا يمكن دراسة اللغة دون الاستناد إلى دراسة الكلام، فهذا الأخير هو الشيء الملموس الذي يمكن من خلاله الوصول إلى ظاهرة اللغة، إضافة إلى مفاهيم ومصطلحات أخرى بحاجة إلى إعادة النظر في تحديدها مثل مفهوم القيمة، والدال والمدلول، واعتباطية الإشارة اللغوية، والبعد الاجتماعي للسان، والسميائية...

1- اللغة والكلام: الثنائية الإشكالية

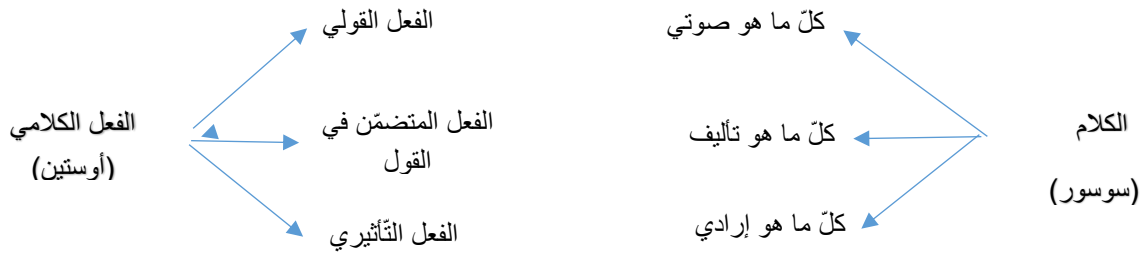
أثبتت العودة إلى المخطوط أن هناك أفكاراً مختلفة تماماً عن تلك الواردة في الدروس، ومن هذه الأفكار:

- اللسان كيان منعزل عن العالم تتم دراسته في ذاته ومن أجل ذاته، بينما يتوافق هذا اللسان مع الفكر في المخطوط، وبالتالي فإنّ للسانيات علاقة بالعلوم الأخرى ومنها علم النفس وعلم الاجتماع.
- لم ينظر سوسور إلى الفونيم باعتباره أصغر عنصر يحمل فارقاً للمعنى، ولكن نظر إليه في المخطوط من خلال تقابله مع الأصوات الأخرى المنتمية إلى نظام الأصوات نفسه.
- أكد سوسور في المخطوط على البعد الاجتماعي للسان بعدما لوحظ إهماله له في الدروس¹

لم يكن مفهوم استعمال اللغة عند سوسور من المفاهيم المرتبطة بتصوّره لدراسة اللغة، التي حصرها في معالجتها من الجانب المحايث لها أي الدراسة الدّاخلية والبنوية، ومثل هذا المفهوم مرتبط بمصطلح التداولية، التي عرّجت على ضرورة ربط العلامات بالذات الإنسانية المتلفظة مهما كان موقعها في الدورة التخاطبية، ومن هذا المنطلق ألفينا التداولية تهاجم اللسانيات وتهمها بالقصور في الإحاطة بمحيط اللغة الحقيقي، وفي الحقيقة التداولية تختص بالإشارة إلى عدم اهتمام اللسانيات بالكلام، الذي كان ثانوياً استعانة بما ورد في كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة"، إذ أنه إذا استندنا إلى قول سوسور "اللفظ ضروري لكي تقوم اللغة"²، فإنّ اتّهامه بالبنوية الصّرفة سيُنسّف لا محالة، إذ أنّ اعتماد التفرقة الموضوعية بين اللغة والكلام، حيث تكون اللغة مركز الدراسة، بينما يتمّ اخراج الكلام من هذه الدائرة لا أساس له من الصّحة، لأنّ سوسور لا يستغني في تحديده للغة عن الكلام، فهو الذي يقول: "إنّ اللسان ضروري لكي يصبح الكلام مفهوماً وتحقق كلّ آثاره، ولكن الكلام ضروري هو الآخر لكي يستقر اللسان، وهو من الناحية التاريخية أسبق، فكيف لنا أن نعلم إلى الجمع بين الفكرة والصورة السّمعية لو لم نلاحظ هذا الجمع سلفاً ضمن فعل كلامي؟ [...] ثمّ إنّ الكلام هو الذي يمكن اللسان من التحوّل [...] إنّ ثمة إذن ترابط بين اللسان والكلام"³

يبدو من القول أننا لم نحسن قراءة سوسور، أو على الأقل تمّ تقويله ما لم يقل، إذ التأكيد على الفصل القائم بين اللسان والكلام يجعل اللسان أساساً، وعزل الكلام عن الدراسة اللسانية ليس صحيحاً، وبذلك تكون هذه الثنائية الشهيرة قد فهمت خطأ لمدة قرن من الزمن، إذ وضعت الحواجز بينهما إلى حدّ اعتبار اللغة هي أساس التفكير السوسوري، أمّا الكلام الذي يمثل الخطاب المتشكّل من الذات المتحدّثة وما تتطلّب من عناصر لتكتمل الدّورة التّخاطبية ويتحقّق التّواصل فقد اعتبر ثانوياً، عرضياً، ودراسته تستوجب امتلاك أدوات مناسبة لطبيعة تغييره.

من المؤكّد أنّ سوسور ميّز بين اللغة والكلام، وميّز بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام، إلا أنّ عزل الكلام عن الدراسة اللسانية غير صحيح بشكل جليّ، إذ أنّ سوسور يشير إلى أنّ اللغة والكلام والتّفرقة بينهما ضمن عناصر أخرى شكّلت الفكر السوسوري وهي: الدّال والمدلّول، الشّكل والمادة، الجانب الفردي والاجتماعي، يقول سوسور: "إنّ اللسان منظّم اجتماعياً ولا يرتبط بالفرد، أمّا ما هو مرتبط بالفرد، أو متصل بالكلام، فهو (1) كلّ ما هو صوتي، و(2) كلّ ما هو تأليف، و(3) كلّ ما هو إرادي"⁴. ولو بحثنا في هذه العناصر، لألفينا مطابقتها لما يدعى بالفعل الكلامي الذي أشار إليه سوسور في قول سابق، والذي بنى به أوستين نظريته، إذ يحيل في عمومها على استعمال اللغة في سياق محدّد، أي ما يندرج من عناصر في الفعل الكلامي وهي: فعل القول، والفعل المتضمّن في القول، والفعل التّأثيري، ويمكن التمثيل لذلك بهذا الشّكل:



يبدو أنّ أتباع سوسور لم يتفطّنوا لمثل هذا المنحى التّداولي، لأنّ الفكر اللّساني كان متوجّها ولأسباب ظاهرة وخفيّة نحو عنصر اللغة، والعمل على التفرقة بينه وبين الكلام، وتبيّن على إثره تطوّر الدراسة اللسانية وفقاً لهذا المنطلق، وابتعادها عن الكلام وما يفرضه من علاقة بين المتخاطبين وما يحيط بهم من ملابسات، وفي الحقيقة هو ابتعاد عن الفعل الكلامي بكلّ مفاهيمه خوفاً من الخروج عن الدراسة المحايدة التي فرضت البقاء عند حدود البنية الدّاخلية.

لقد أسهمت اللّسانيات في إبعاد الذات عن نتائجها، وجعلت الملفوظات مجرّدة من أصحابها أو يتيمة، وهو تابع للفصل بين الإنسان وتاريخه، وفي الحقيقة هو نوع من الاستعمار السّاعي إلى طمس هوية الأفراد، يقول عبد الغفّار حامد هلال: "في نشأة الدراسة اللّغوية في "أوروبا" ما يدلّ على أنّ للاستعمار وحملات التّبشير المسيحية دوراً رئيساً ساعد على ظهورها وانتشارها وتطوّرهما، للوصول إلى شعوب العالم التي يقصدونها، ويرجون من ورائها السيطرة والتّفوذ"⁵، لقد جاءت الجمل المدروسة منفصلة عن سياقها، وربّما كان في هذا الاختيار أهداف تتجاوز العلمية التي كان سوسور ينادي بها، إذ أنّ فكرة التّواصل المؤسّسة على الأخبار أو الإبلاغ لم يعد لها مكانة عند اللّغويين، وذلك استناداً إلى ما ذهب إليه كلّ من جاكبسون وتشومسكي في تحديد هاتين اللّغتين ولوظيفتهما، التي

انحصرت في الإطار المجرد، ومن ثمة إهمال ما له علاقة بالاستعمال الحقيقي، أي ربطها بالذات المتلفظة وجهاز التلّفظ.

ومن هذه النقطة ألفينا إميل بنفنيست في كتابه "مشاكل اللسانيات العامة"⁶ يثير إشكالية الكلام مرة أخرى، ويتناول مصطلح الخطاب كبديل مصطلحي ومنهجي لدراسة اللغة البشرية، ويقول: "وبذلك نغادر ميدان اللسان بوصفه نسقا من العلامات لنلج فضاء آخر، وهو فضاء اللسان بوصفه وسيلة للتواصل، تعبيره الخطاب... وهما أي الجملة والخطاب ميدانان مختلفان بالرغم أنهما ينطويان على الحقيقة نفسها، وينتجان نوعين مختلفين من اللسانيات على الرغم أن سبيلهما يتقطعان في أي لحظة، فهناك من جهة اللسان بوصفه مجموعة من العلامات الصورية، التي يتم إبرازها بإجراءات صارمة وترتيبها ضمن أقسام، وتنظيمها ضمن بنيات وأنساق، ومن جهة أخرى تظهر اللسان ضمن التواصل الحي"⁷.

إنّ مثل هذا المنعرج البارز في البحث اللساني المعاصر، لم يحظ بالشّيع عند كثير من اللسانيين المغاربة، وإذا عرجنا على بعض الدراسات الجزائية على سبيل المثال لوجدنا أصحاب التيار التداولي لم تكن لهم إشارة إلى ما هو تداولي عند سوسور، وإنّما كانت الدراسات تميّز في أغلبها بين الطابع الوصفي المعياري للغة والطابع الوظيفي الاستعمالي.

2- قراءة في المنجز اللساني التداولي الجزائي:

لقد أثرنا العودة إلى بعض المراجع اللسانية التي كانت الأولى في البحث التداولي على مستوى الجامعة الجزائرية، وأصبحت لأهميتها تدرج في كثير من الدراسات والبحوث اللسانية والتداولية أيضا، وجاءت مرتبة حسب صدورها، دون العودة إلى المراجع المترجمة للدروس، والتي كانت سندا لفهم ما كان يقال عنه أنّه نتاج سوسور، ذلك أنّ العرب قد تأخروا في نظر عز الدين المجذوب عن ترجمة الدروس، فنجدته يقول: "حظي كتاب فرديناند دي سوسور في الفترة الأخيرة بعناية كبيرة من قبل الباحثين العرب، فظهرت له خلال سنتي 1984 و1985 ثلاث ترجمات، وقد تظهر له ترجمة رابعة، ولكنّ العرب يحاولون تدارك ما فاتهم من أمر هذا الكتاب الفدّ... وقد يبدو تأخر العرب عن ترجمة هذا الكتاب أمرا غريبا بالنظر إلى قيمة الكتاب وخطره..."⁸، فعن أيّ خطر يتحدّث، وما هي قيمة الكتاب في الدرس اللساني قديما وحديثا؟

في كتاب "التداولية عند العلماء العرب"⁹ يتحدّث مسعود صحراوي عن التيار التداولي الذي يعالج علاقة العلامات بمستعملها-عملا بمفاهيم بيرس وموريس-وطرائق توظيف اللغة وممارستها، وباعتبار بحثه الهادف إلى رصد ملامح التداولية الغربية في الدرس البلاغي العربي القديم، فإنّ اهتمامه منصب على نظرية الأفعال الكلامية، التي تعدّ مبحثا هاما في التيار التداولي الحديث، والتّنقيب في التراث العربي عن تجليات النظرية والكشف عن علاقة العرب بمثل هذه الظواهر اللغوية ومدى اجتهادهم فيها.

والأمر الذي يهمننا هو إشارة الباحث في مطلع كتابه إلى الحديث عن نقطة الانعطاف في مسار الدرس اللساني، حيث أنّ إدراك قصور المنطق الصوري في وصف الظواهر المعرفية وتحليلها، أدى إلى إدراك عجزه

أيضا في تحليل الظواهر اللغوية، فظهر في المسار اللساني توجّهان متنافسان: توجّه شكلي صوري بزعامة البنيوية، وتوجّه وظيفي بزعامة التداولية التي كانت السبب الرئيس في تعميق هوة الخلاف بين هذين التوجّهين، بما قدّمته من مفاهيم ورؤى تطوّر بها التيار الوظيفي المعاصر، حيث شهدت الدراسات اللغوية، وخاصة مع فلاسفة المدرسة التحليلية انقلابا مفاهيميا هاما، فأصبح الاهتمام بالموضوعات التجريدية من الاهتمامات الأساسية للسانيات، ولم يعد الدارسون المعاصرون يؤمنون بما جاءت به البنيوية التقليدية، وإنما فتحوا أبواب الدراسة على معارف أخرى كالفلسفة، والمنطق، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، فتجاوزوا بذلك النظرة البنيوية، التي أبعدت البحث عن التركيز على الكلام وعناصره الأساسية ك: غرض المتكلم وحال المخاطب وسياق الحال.

كما وضّح الباحث في هذا المقام قصور النظرة البنيوية في تحليل الظاهرة اللغوية، بإقصائها لأحوال التخاطب المرتبطة بظاهرة الكلام السوسورية، والإبقاء في الآن ذاته على البنية والنظام والوظيفة والعلاقة، التي يمكن الأخذ بها بين التحليل التوليدي والتحليل التداولي، وبالتالي لا يمكن تجاوز مفاهيم البنيوية في الفكر اللساني الذي تأسست عليه بقية النظريات اللسانية المعاصرة.

تبرز التداولية في مفهومها العام باعتبارها منهجا سياقيا، موضوعه بيان فاعلية اللغة بربطها بالأغراض والمقاصد، ومراعاة الأحوال، والاهتمام بملابسات الوضع والإنتاج والتأويل، فالتداولية تتعامل مع اللغة باعتبارها نشاطا كلاميا يمارس من كلا الطرفين المتخاطبين، ولا تكتفي بوصف البنى في صيغتها الصورية، فهي نظرية تزوج بين الإنتاج اللغوي وشروطه الخارجية، وتدرس اللغة الحية لغة مستعملة من قبل شخص معين، في مقام معين، موجّهة إلى مخاطب معين لأداء غرض معين. والاهتمام بكلّ هذه العناصر سيقودنا إلى اعتبار التداولية علما يهتمّ بالعناصر اللغوية وغير اللغوية التي يُنجز فيها الحدث الكلامي، والاهتمام بالسياق، والظروف، والملابسات الخطابية، وذلك لكونها علما يؤمن بالواقع الاستعمالي من أجل تفسير الظواهر اللغوية.

وهذا التحليل وان دلّ على شيء إنّما يدلّ على محاولة الباحث تتبّع سيرورة الدرس اللساني عند الغربيين وتطوّره عبر مراحل التاريخية، وصولا إلى الدرس التداولي حتى يتبيّن الجوانب والمراحل التي تمخّضت عنها النظرة التداولية في التحليل اللغوي، والاهتمام باللغة اليومية يعني في حقيقة الأمر الاهتمام بالكلام الذي يمارسه الأشخاص بشكل فردي، وهو الكلام الذي كان يُعتقد أنّه مقصى من الدروس السوسورية، فالسؤال المطروح ههنا هو: هل يمكن الحديث عن إعادة التداولية الاعتبار للكلام أو تثبيتها له؟

في كتاب " في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم"¹⁰ وجدنا الباحث خليفة بوجادي يشير إلى أنّ التفكير اللساني قد عرف في مطلع القرن العشرين تغييرا كبيرا وتطوّرا أدى إلى تحوّل الدرس اللساني من الدراسة التاريخية والمقارنة إلى الدراسة الآنية والوصفية مع ظهور سوسور وما جاء به في محاضراته أو ما من المفترض قد جاء به، ولم يتجاهل خليفة بوجادي الحديث عن مجهودات سوسور في الترتيب لظهور الدرس التداولي الحديث، وكان ذلك دون تفصيل أو استشهاد، إلا أنّ الباحث ومثل أغلب الباحثين سيعود إلى التمييز الشهير بين الجانب الاجتماعي للغة، والجانب الفردي لها، ويعتبره منطلقا أساسا لتتبّع مسار

ظهور المنحى التداولي عند سوسور، ذلك أنّ تفرقته بين الجانبين وتوضيح حدود كلّ منهما قد حصر المفاهيم المشتركة بين أفراد جماعة لغوية واحدة، وهو ما يتجسّد في ضبط القوانين التي يتحقّق فيها التّواصل، وينتج منه خطابا ناجحا أو فاشلا حسب درجة احترامه لهذه القوانين، لأنّ هذه الأخيرة تتحكّم في الجانب الاجتماعي للّغة ولا تسمح للفرد أن يخلقه لوحده، يقول خليفة بوجادي: "... لأنّه بتمييزه الجانب الاجتماعيّ عن الجانب الفرديّ، وحدود كل منهما يكون قد حصر المفاهيم المشتركة بين أفراد المجموعة اللّغوية الواحدة، وهي القوانين العامة (النظام) التي يؤدّي فيها التّواصل؛ فيكون الخطاب ناجحًا ما احترامها، وفاشلا ما خالفها؛ ذلك أنّ اللّغة في جانبها الاجتماعيّ تحكمها قوانين الظواهر الاجتماعية جميعا فلا يبدعها الأفراد، ولا يخالفونها أو يحوّرونها، كما أنّها تظهر بالتدرّج، وتتغيّر أو تختفي بالتدرّج"¹¹.

وفي اللّسانيات التداولية يقوم الباحث بتحديد مرجعية التفكير التداولي إلى عدّة مصادر، ذكرها الباحثون، وهي موزعة بين الفلسفة والمنطق، وبعض نظريات اللسانيات الحديثة؛ نذكر منها:

- الفلسفة اللغوية: تشمل بحوث رواد فلسفة اللغة الطبيعية والفلسفة التحليلية، مقابل مدرسة اللغة الشكلية، وتقوم على دراسة كيفية توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال الإبداع، ومن الذين اشتهرت بحوثهم في هذا الموضوع:

1- فيجنشتاين: يعدّ فيجنشتاين من الفلاسفة الأوائل الذين نظروا في الجانب الاستعمالي للّغة، وعرض فكرة ألعاب اللّغة التي قال في مفهومها إنّها الأفعال التي نلتفظها، وترتبط بأشكال الحياة والممارسات التي نحيها، أي أنّه ينحصر فيما يباح للمتكلمين في إطار العلاقة بينهم وبين عباراتهم.

2- أوستين: عُرف أوستين¹² من خلال محاضراته التي قدّمها بجامعة هارفارد في 1955م في فلسفة اللغة، ونشرت في 1962 بعد وفاته، بعنوان "كيف ننجز أفعالا بالكلمات"، واللّغة في مفهومه تتجاوز وظيفة الاتّصال إلى وظيفة التأثير في السلوك الإنساني وتغييره من خلال مواقف كليّة.

3- بيرس: يعدّ من الأوائل الذين اهتموا بدراسة العلامة انطلاقا من مفاهيمها الفلسفية، ويعدها أساس النشاط السيميائي. وهو يربط فهم اللغة بالمواقف التّواصلية، ويجعل المعنى مقترنا بظروف الاستعمال على نحو ما مرّ مع فيجنشتاين وأوستين.

4- موريس: أسهم في تأسيس الدّرس السيميائي إلى جانب بيرس، نظر إلى بنية اللّغة على أنّها نظام من السّلك؛ ذلك أنّها تجعل المتلقي مستعدا لردّ الفعل وفقا للبنى التي يستقبلها، وقد جعل التداولية جزءاً من البحث السيميائي؛ وتناول اللّغة من حيث العلاقة بين العلامات ومستعملها.

وفي كتاب "دوسوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات"¹³ للباحث مختار زواوي نجده أكثر دقّة في تحليله للوضع اللّساني الرّاهن، إذ يقوم بقراءة مزدوجة للّسانيات من خلال الدّروس والمخطوط، وحاول إثبات عدم صحة الانتقادات الموجهة من التداولية للّسانيات وأجملها في المسائل التالية:

- إزاحة الكلام من الدّرس اللّساني.

- عدم العناية بالفرد المتكلم.

- إقصاء الحال والسياق والاستعمال من حقل اللسانيات.

1. إزاحة الكلام: ميّز سوسور من خلال كتاب محاضرات في اللسانيات العامة بين الكلام واللسان، فاللسانيات تشتمل على قسمين: أحدهما أساسي موضوعه اللسان والآخر ثانوي موضوعه الكلام، فاللغة بوصفها ملكة إنسانية وميزة كلية مشتركة بين البشر تختلف عن الألسن التي تبقى جزئية ومتغيرة؛ بمعنى أن اللسان قسم معلوم وأساسي من اللغة "إنه نتاج لملكة اللغة، ومجموعة من المواضع الضرورية التي يتبناها الكيان الاجتماعي كي يمكن أفرادها من ممارسة هذه الملكة"¹⁴.

يرى الباحث في هذا التقسيم والترتيب التفاضلي تناقضاً إذا قارنّا فقرات الكتاب بعضها ببعض، فمبدأ الفصل بين اللسان والكلام وإخراج الكلام من دائرة اللسانيات ثابت في بعض الأحيان، ونجده مبدأ نسبياً في مواضع أخرى كما هو الحال عند الحديث عن التغير اللساني، فقد أدّى فصل اللغة عن اللسان إلى فصل الكلام عن اللسان ليصبح هذا الأخير في نظر واضعي كتاب محاضرات في اللسانيات العامة هو الموضوع العلمي الوحيد الذي يمكن لللسانيات أن تصفه وفق قواعد خاصة بها، أما الكلام فلا يمكن أن يكون موضوعاً علمياً خاصاً باللسانيات.

يذهب الباحث إلى أنّ سوسور ميّز بين اللسان والكلام وافترض لكلّ منها نظرية خاصة لكنّه لم يتّخذ اللسان الموضوع الرئيس لللسانيات العامة ولم يُخرج منها البحث في الكلام، وقد أسهمت مخطوطات سوسور المنشورة في رفع اللبس عن إقصاء سوسور للكلام من مجال اللسانيات، ويعتقد الباحث أنّ سوسور لو أراد إقصاء الكلام لأفصح عن ذلك، ولا يكتفي بالإشارة إلى وجود لسانيتين دون أي ترتيب بينهما¹⁵.

ويشير الباحث إلى أنه لم يجد الحجج والغايات والظروف التي دفعت شارل بالي وألبير سشهاي إلى اتخاذ قرار إقصاء الكلام من حقل اللسانيات، يقول مختار زواوي: "إننا لم نتمكن على الرغم من تجوالنا الدؤوب في أدبيات اللسانيات السوسورية من الوقوف عند الحجج والظروف والغايات التي دفعت بشارل بالي وألبير سشهاي إلى اتخاذ قرار إقصاء الكلام من اللسانيات"¹⁶، ورغم ذلك نجد إقرارهما بوجود لسانيات غير لسانيات كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة تعنى بالكلام، لكنّها في نظرهما لسانيات بحدود فاصلة مع لسانيات اللسان.

2. الفرد المتكلم: إنّ إقصاء الكلام من مجال اللسانيات في رأي الباحث يمثل في حقيقة الأمر ثلاث إقصاءات هي: إقصاء للأفراد المتكلمين، إقصاء للحال، وإقصاء للاستعمالات اليومية للغة¹⁷، ويعدّ الإقرار بإقصاء لسانيات سوسور للفرد المتكلم إقراراً يفتقد لقاعدة علمية تسنده، وقد مكّنت مخطوطات سوسور المنشورة ضمن كتاباته في اللسانيات العامة من الكشف عن كثرة ورود الفرد المتكلم في تصورات اللسانية مثل: التمييز بين الصّور الصّوتية والأشكال اللسانية، إذ أنه تمييز قائم في وعي الفرد المتكلم "إن الشّكل صورة صوتية محدّدة في وعي الأفراد المتكلمين؛ أي أنّ لها وجوداً معلوماً وحدوداً معلومة"¹⁸. وقد كثر الحديث عن الفرد المتكلم وعدّه عنصراً أساساً في تصوّر السوسوري اللساني إلى درجة عدم الفصل بين مفهومه ومفهوم اللسان.

3. إقصاء الحال والسياس: والحال عادة تشمل السياق النصي؛ أي المحيط الكلامي أو الكتابي للملفوظ، السياق الموقف الذي يشمل كل ما يحيط بالأفراد المتكلمين، بما في ذلك الزمن والمكان والغرض الذي تواصلوا من أجله، فضلا عن السياق العالمي¹⁹، وقد أصبح السياق المعيار الذي يتخذه كثير من الباحثين في الدراسات التداولية، بحيث يحيل مفهوم السياق النصي إلى الدراسات التي نتجت عن اللسانيات النصية وتحليل الخطاب، بينما يحيل مفهوم السياق المرجعي إلى تداوليات الفلاسفة والمناطق الذين أنتجوا تداوليات الإشارة...²⁰ وأخيرا تأسست كثير من الأبحاث التداولية على مفهوم السياق التفاعلي مثلما يشير إلى ذلك المؤلف، ويعتقد أنه يفيد عزل صنف معين من الأحوال ويتكوّن أساسا من الأفعال اللسانية ذاتها، رغم ذلك فإن الأبحاث التداولية تستدعي جميعها عنصر السياق ليتحدّد المعنى، السياق الذي سيتفرّع إلى سياقات ومراتب تؤطّر الثقافة لشكل عام، يقول مختار زواوي: "الطّريف في الأمر أنّ مفهوم السياق أضحى المعيار الذي يتّخذه كثير من الباحثين في تصنيف الدراسات التداولية..."²¹ ومن الملاحظ أنّ الباحث رغم تحديداته المختلفة للسياق لم يفسّر كيف تعامل سوسور مع هذا المفهوم الأساسي في التوجّه البنيوي والتداولي لدراسة اللغة البشرية.

خاتمة:

من خلال التعرّف على دروس سوسور ومخطوطه، اتّضح جليا أنّ هناك من الأمور التي يجب إعادة النّظر فيها مثل مسألة الخطاب وعلاقته باللغة، حيث يظهر الفرق بين ما هو مكتوب في المخطوط وبين ما أشار إليه سشهاي وشارل بالي، ففي موقف من المواقف حول الخطاب يتساءل سوسور عن معنى الخطاب ويميّزه عن اللغة تمييزا صريحا يقول: "لا يبتكر اللسان إلا لغاية التّخاطب، ولكن ما الذي يفصل الخطاب عن اللسان، أو بعبارة أخرى، ما الذي-في لحظة ما-يجيز لنا القول بأنّ اللغة تحوّلت إلى خطاب؟ ... والإجابة عنه لأول وهلة إجابة بسيطة: ف فيما يقوم الخطاب على التّوكيد على العلاقات التي تنعقد بين هذه المفاهيم التي صيغت لسانيا، تقتصر اللغة، سلفا على صياغة المفاهيم منفردة تنتظر أن يجمع بينها حتى يتمّ التعبير عن الفكر"²². يبدو من خلال القول أنّ سوسور لم يصّرح بجلاء عن الحدود الفاصلة بين اللغة والخطاب، وإنّما يعتبر اللغة خطابا عن طريق الفعل أي أنّ الخطاب يفعل اللغة، فتصبح نشاطا لسانيا، يقول سوسور في موضع آخر: "إنّ الكلام هو الذي يطرّوّر اللغة، فالانطباعات التي نتلقاها من الآخرين هي التي تقوم بتعديل عاداتنا الكلامية"²³، ومثل هذا التّصوّر جعل بنفنيست يبني عليه نظرية التّلفّظ التي ستعيد الاعتبار للعناصر الخطابية المستبعدة في الدراسة المحايدة، فيمكن القول إنّ سوسور بحاجة إلى أن يقرأ قراءة جديدة وعميقة، وذلك من خلال كتاباته الحقيقية، ربما يسمح ذلك بتطوير دراسة اللغة البشرية بالإمام بجميع عناصرها، عسى أن تعيد الاعتبار لهوية المتكلم والكشف عن أسرار تداولها وفق المواقف والسياقات باختلاف أنواعها.

ومثلما يذهب إلى ذلك لويس دوسوسور، فإنّ هدف عودة الباحثين إلى "دروس في اللسانيات العامة" لم يكن من باب فهم تفكير سوسور، وإنّما كان لمعرفة والنّظر في فلسفة اللغة التي تحملها الدّروس في حدّ ذاتها، فلم يعد كتاب "الدّروس" موضوعا للتّفكير الفيلولوجي، وإنّما أصبح كتابا مرجعيا، يقول مترجم كتاب ميشال أريفيه "البحث عن فرديناند دي سوسور": "وما يزال سوسور بعد مرور [ما يقارب] على وفاته يستثير القرائح والمداد،

والباحثون يسعون وراء المسكوت عنه أو المغيب من أفكاره وتعاليمه، التي مهّدت الطريق لنضوج هذا العلم واستكمال له لنظرياته وتطبيقاته ولأدواته الإجرائية"²⁴، يبدو من خلال هذا الكلام ضرورة العودة إلى كتاب "دروس في اللسانيات العامة" للبحث فيه عن سوسور، وفكر سوسور، وما ليس لسوسور.

¹ - لويك دوبيكير، فهم فرديناند دو سوسور وفقا لمخطوطاته، مفاهيم فكرية في تطوّر اللسانيات، ترجمة ريما بركة، مراجعة بسام بركة، ط1، مكتبة الفكر الجديد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان 2015، ص 10-11.

² - فردينان دي سوسور، دروس في اللسانيات العامة، ترجمة صالح القرماضي وآخرون، الدار العربية للكتاب، 1985، ص 41

³ - Desaussure. F, Cours de Linguistique générale, Editions Talantikit, Bejaia 2002, P25.

⁴ -Desaussure. F, Cours de Linguistique générale, P 116.

⁵ - عبد الغفار حامد هلال، علم اللغة بين القديم والحديث، ط1، 1989، ص70.

⁶ - Benveniste. E, Problèmes de linguistiques générales, Editions Gallimard, Paris 1966, T1.

⁷ - Benveniste. E, Problèmes de linguistiques générales, T1, P 130.

⁸ - عز الدين المجذوب، حوليات الجامعة التونسية، ص 43، نقلا عن ميشال أريفيه، البحث عن فرديناند دي سوسور، ترجمة محمد خير محمود البقاعي، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2009، ص 11.

⁹ - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان 2005.

¹⁰ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر 2009.

¹¹ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص14.

¹² - Austin. J, Quand dire c'est faire, Traduction et introduction de Gille Lanes, Editions de Minuit, Paris 1970.

¹³ - مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران 2017.

¹⁴ - De Saussure. F, Cours de Linguistique générale, P 25.

¹⁵ - مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات، ص 202.

¹⁶ - المرجع نفسه، ص 203.

¹⁷ - Eluard. R, La pragmatique linguistique, Nathan Editeurs, Paris 1985, P 9.

¹⁸ F.de Saussure, écrits de linguistique général, p 37.

¹⁹ -R, Eluard, la pragmatique linguistique, p13.

²⁰ - مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات، ص 208.

²¹ - المرجع نفسه، ص 207.

²² -F.de Saussure, note sur le discours (fonds Bp1996), in écrits de linguistique General, texte établi et écrite par S. Bouquet et R. Engler, Gallimard, Paris 2002, p 277.

²³ - De Saussure. F, Cours de Linguistique générale, P 26.

²⁴ - ميشال أريفيه، البحث عن فرديناند دي سوسور، ترجمة محمد خير محمود البقاعي، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان 2009، ص 14.

-